موقف الخطيب الشربيني من القضاء والقدر من خلال تفسيره

(السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير)

إعداد

د. مفضل حلمي

الملخص:

إن علم التفسير من أشرف العلوم كلها وأجلّها وأرفعها، لأن موضوعه كلام الله تعالى، ووحيه إلى رسوله ﷺ الذي تحدى به جميع خلقه أن يأتوا بمثله فما استطاعوا وأنّى لهم أن يستطيعوا.

لذا فقد اهتم علماء المسلمين سلفاً وخلفاً بهذا العلم الشريف، وكان من بين هؤلاء العلماء الأجلاء الذين وفقوا لخدمة هذا الكتاب العزيز والعناية به: الخطيب الشربيني المتوفي (٠٠٠-٩٧٧هـ)، فلقد ألف في خدمة القرآن الكريم تفسيره (السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير). ولقد اقتضت طبيعة البحث أن يكون في مبحثين تسبقهما مقدمة وتمهيد وتليها الخاتمة، وفيها أهم النتائج والتوصيات، وفيما يلي تفصيل ذلك:

المبحث الأول: ترجمة الإمام الخطيب الشربيني – رحمه الله تعالى– وفيه ثمانية مطالب:

المطلب الأول: نسبه.

المطلب الثاني: مولده ونشأته.

المطلب الثالث: أخلاقه وصفاته .

المطلب الرابع: شيوخه.

المطلب الخامس: تلاميذه.

المطلب السادس: ثقافته وآثاره العلمية.

المطلب السابع: مذهبه العقدي والفقهي.

المطلب الثامن: وفاته.

المبحث الثاني: موقف الخطيب الشربيني من القضاء والقدر.

ثم ختمت البحث، ببعض النتائج والتوصيات التي توصلت اليها من خلال هذا البحث، قمت بعمل فهرس للمصادر والمراجع التي اعتمدها في هذا البحث.

الكلمات المفتاحية: ترجمة الإمام الخطيب الشربيني – رحمه الله تعالى– موقف الخطيب الشربيني من القضاء والقدر.

The science of tafseer is one of the noblest, noblest, and loftiest of all sciences, because its subject is the word of God Almighty, and His revelation to His Messenger, may God's prayers and peace be upon him, with which he challenged all of His creation to come up with something like it, but they could not, and how could they be able to.

Therefore, Muslim scholars, both predecessors and successors, have taken an interest in this honorable science, and among these venerable scholars who succeeded in serving and caring for this dear book was: Al-Khatib Al-Sharbiny, the deceased (000-977 AH). The meanings of the words of our Lord, the All-Wise, the All-Aware). The nature of the research necessitated that it be in two sections preceded by an introduction and a preface and followed by a conclusion, and it contains the most important findings and recommendations, and the following is a detail of that:

The first topic: the translation of Imam Al-Khatib Al-Sherbiny - may God Almighty have mercy on him - and it contains eight demands:

The first requirement: proportion.

The second requirement: his birth and upbringing.

The third requirement: his morals and attributes.

The fourth requirement: his elders.

The fifth requirement: his disciples.

The sixth requirement: its culture and its scientific effects.

The seventh requirement: his doctrinal and jurisprudential doctrine.

The eighth requirement: his death.

المقدمة:

لما كانت معجزة الإسلام الخالدة هي القرآن الكريم، وكان كل ما فيه حجة باهرة للمؤمنين، وبرهاناً قاهراً للمعرضين، لأنه كتاب شامل معجز تحدى الله به البلغاء والفصحاء من العرب أن يأتوا بمثله فعجزوا، لأنه ليس من عند بشر قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**﴾ (١)، ولذا دعانا الله – عز وجل – إلى تدبر آياته، والكشف عن أسراره، ومعرفة أحكامه، فقال تعالى: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ (٢)، ومما يقوي التدبر النظر إلى أحكامه الفقهية، وكان ممن اعتنى بهذا العلم الإمام الخطيب الشربيني من خلال تفسيره المعروف(السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير)، فقد تعرض بصورة واضحة لتفسير آيات الأحكام وله جهد مشكور في هذا الصدد.

المبحث الأول: ترجمة الإمام الخطيب الشربيني – رحمه الله تعالى– وفيه ثمانية مطالب:

المطلب الأول: نسبه (٣):

هو شمس الدين محمد بن أحمد الشربيني المشهور بالخطيب الإمام العالم الشافعي القاهري.

المطلب الثاني: مولده ونشأته:

لم تذكر المصادر التي ترجمت للخطيب الشربيني تاريخ مولده أو مكانه، ويظهر أنه ولد في الربع الأول من القرن العاشر لأنه أخذ عن علماء توفوا في تلك الفترة، فهذا

شيخه زكريا الأنصاري المتوفي في سنة ست وعشرين وتسعمائة، وهى أقدم وفاة وجدتها الشيخ من شيوخه .

أما نشأته: فلا نعرف عنها شيئا وليس لدينا معلومات عن طفولته ونشأته الأولى، إذ لم يذكر الذين ترجموا له أخبار عن ذلك، وكذلك لا نعلم شيئا عن أسرته، فلعله كان من أسرة فقيرة غير معروفة، ليس لها سبق في ميدان العلم فإن الناس يعرفون بعلمهم كما عرف هو بعلمه . ولكن يستنتج من وفاة شيخه القاضي زكريا أن نشأته كانت في القاهرة والله أعلم.

المطلب الثالث: أخلاقه وصفاته:

كان الخطيب الشربيني رحمه الله صاحب أخلاق فاضلة وصفات رفيعة، وقد أثنى عليه من ترجم له وذكروا خصاله الحسنة وسيرته الكريمة ولم يذكر فيه قدح أو زلة، كما ذكرت المصادر التي ترجمت له أنه على جانب كبير من التقوى والورع والزهد والتقشف (٤) .

المطلب الرابع: شيوخه:

تبين لي مما سبق أن الخطيب الشربيني رحمه الله نشأ في القاهرة، وتلقى العلوم فيها على أيدي علمائها فأفادوه في الفقه والتفسير واللغة والقراءات والنحو والعقيدة وغيرها، وقد حاولت أن أتتبع أسماء شيوخه فوجدتهم قلة، ولعل الذين حصلت عليهم لم أجد لهم ذكراً أكثر من ذلك، وكذلك لم نجد لبعضهم ترجمة، أما الذين حصلت على ترجمة لهم فمنهم:

١. القاضي زكريا بن محمد بن زكريا الأنصاري (٥).

٢. ومنهم الشيخ الإمام المحقق شهاب الدين أحمد البرلسي الشافعي الملقب بعميرة(٦) .

٣. ومنهم الشيخ شهاب الدين أحمد الرملي المتوفي المصري الشافعي (٧).

وذكر النجم الغزي أسماء ثلاثة من شيوخه، ولكن لم أحصل على ترجمة لهم وهم النور المحلى، والنور الطهواني، ومحمد بن عبد الرحمن الكردي(٨) .

المطلب الخامس: تلاميذه:

لم تذكر المصادر أسماء تلاميذه، ولم نحصل على شيء من ذلك، إلا أن المحبي ذكر في خلاصة الأثر أن من الذين أخذوا على الخطيب ابنه عبد الرحمن، وهو الذي له شرح على البهجة الوردية سماه المواهب السنية، وعبد الرحمن بن محمد المنعوت زين الدين بن شمس الدين الخطيب الشربيني الفقيه الشافعي المصري الإمام العمدة ابن الإمام العمدة، كان من أهل العلم والبراعة في فنون كثيرة، حسن الأخلاق، كثير التواضع، أخذ عن والده وغيره، وكان كثيرا ما يحج، توفي في صفر سنة أربع عشرة وألف (٩).

المطلب السادس: ثقافته وآثاره العلمية:

كانت حياة الخطيب رحمه الله حياة مباركة، وأفاء الله عليه بعقلية بارعة وذكاء متقد، بحيث كانت له مناهل متعددة، وموارد كثيرة، فقد برع في الفقه واللغة والنحو والصرف وغيرها .

المطلب السابع: مذهبه العقدي والفقهي:

سار الخطيب الشربيني في الاعتقاد على مذهب أهل التأويل في أسماء الله وصفاته، فيرجح مذهب الأشاعرة .

أما مذهبه في الفروع على مذهب الإمام الشافعي وهو من أعيان علماء الشافعية في القرن العاشر، ولقيت مؤلفاته في فروع المذهب، قبولا واسعا وصارت من الكتب المعتمدة.

المطلب الثامن: وفاته:

بعد حياة مملوءة بالنشاط العلمي والتدريس والتأليف قضاها الخطيب الشربيني، اختاره الله سبحانه وتعالى بعد عصر يوم الخميس وهو الثاني من شهر شعبان سنة سبع وسبعين وتسعمائة، وقد اتفقت جميع المصادر التي اطلعت عليها على سنة وفاته (١٠).

المبحث الثاني: موقف الخطيب الشربيني من القضاء والقدر:

الإيمان بالقضاء والقدر أحد أركان الإيمان الستة، التي أجمعت عليها أهل السنة، ولا يصح إيمان مؤمن إلا إذا اعتقد أن علم الله وإرادته متعلقة أزلا بالكائنات قبل وجودها فلا حادث إلا وقد قدره الله أزلا وتعلقت به إرادته، وعلى هذا فكل خير وشر هو بقضاء الله وقدره وأنه لا يكون شيء إلا بإرادته ومشيئته وتقديره، وأنه ليس هناك شيء في العالم يخرج عن ذلك وخالف في هذا القدرية، وأول من قال بالقدر معبد الجهنى[١١] .

وإليك بعض الأمثلة التي تبين موقف الخطيب في هذا الجانب-:

١. ففي قوله تعالى: ﴿**كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ** ﴾ [١٢] بعد أن ذكر أن الله خلق الهداية في قلوب فريق حق عليهم الهداية، وفريق حق عليهم الضلالة بين أن ذلك بقضاء الله فقال: (أي بمقتضى القضاء

السابق، وقيل: إن الله تعالى بدأ خلق بني آدم مؤمنا وكافرا كما قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ** ﴾ [١٣] ثم يعيدكم يوم القيامة كما خلقكم كافراً ومؤمناً، وقيل: يبعثون على ما كانوا عليه، وقيل: من ابتدأ الله خلقه على الشقاوة صار إليها وإن عمل عمل أهل السعادة، كما أن إبليس كان يعمل بعمل أهل السعادة ثم صار إلى الشقاوة، ومن ابتدأ الله خلقه على السعادة صار إليها وإن عمل عمل أهل الشقاوة، كما أن السحرة كانوا يعملون عمل أهل الشقاوة فصاروا إلى السعادة) [١٤] .

٢. في قوله تعالى: ﴿ **وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا** ﴾ [١٥] .

قال الخطيب الشربيني رحمه الله: (إلا أن يشاء خذلاننا وارتدادنا فحينئذ يمضي قضاء الله فينا وينفذ حكمه علينا، وفيه دليل على أن الكفر بمشيئة الله تعالى [١٦] .

٣. في قوله تعالى: ﴿**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا** ﴾ [١٧] .

قال: (أي: هيأه لما يصلح له، مثاله أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدر الذي تراه، فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة به في بابي الدين والدنيا وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجبلة المستوية المقدرة وسمى إحداث الله خلقا، لأنه لا يحدث شيئاً لحكمة[١٨] إلا على وجه التقدير من غير تفاوت، فإذا قيل: خلق الله كذا فهو بمنزلة قولك أحدث وأوجد من غير نظر إلى وجه الاشتقاق فكأنه قيل: وأوجد كل شيء فقدره تقديرا في إيجاده ولم يوجده متفاوتاً) [١٩] .

٤. في قوله تعالى: ﴿ **وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا** ﴾ [٢٠] .

قال: (أي: قضاء الملك الأعظم في ذلك وغيره: ﴿ **قَدَرًا** ﴾، وأكده بقوله تعالى: ﴿ **مَقْدُورًا** ﴾ أي: لا خلف فيه ولابد من وقوعه في حينه الذي حكم بكونه فيه) [٢١].

٥. وعند تفسير قوله تعالى: **﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴾** [٢٢].

ذكر معنى الآية وبين أنهم لا يضلون أحد من الناس إلا من سبق له في علم الله تعالى الشقاوة ثم قال: (احتج أهل السنة بهذه الآية: على أنه لا تأثير لإيحاء الشيطان ووسوسته وإنما المؤثر هو الله حيث قضاه وقدره) [٢٣] .

ومعنى كلامه رحمه الله أن المعصية التي تقع من العاصي بسبب وسوسة الشيطان أنها لا تخرج عن قضاء الله وقدره لأنه لا يقع شيء في هذا الكون إلا بقضاء من الله وقدره .

٦. في قوله تعالى: **﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾** [٢٤] .

قال: (قال بعض المفسرين: إن هذه الآية نزلت في القدرية لما روي أنه ﷺ قال: « **مجوس هذه الأمة القدرية** »[٢٥] **وهم المجرمون الذين سماهم الله تعالى في قوله سبحانه:﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾** [٢٦] .

في مسلم عن أبي هريرة قال: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله ﷺ في القدر فنزلت هذه الآية إلى آخرها) [٢٧] . قال الرازي: والقدري هو الذي ينكر القدر وينسب الحوادث لاتصالات الكواكب، لما مر أن قريش خاصموا النبي ﷺ في القدر، ومذهبهم أن الله تعالى مكن العبد من الطاعة والمعصية وهو قادر على خلق ذلك في العبد، وقادر على أن يطعم الفقير ولهذا قالوا: **﴿أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ﴾** [٢٨] منكرين لقدرته تعالى على الإطعام، ثم قال: رد عليهم بالكتاب والسنة، أما من الكتاب فقوله تعالى: **﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾** [٢٩] أي: قضاء وحكم وقياس مضبوط

وقسمة محدودة وقوة بالغة وتدبير محكم في وقت معلوم ومكان محدود مكتوب ذلك في اللوح قبل وقوعه.

وأما من السنة: فما روي عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **(كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ علَى المَاءِ)** [٣٠]، وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ **(لا يؤمِنُ عبدٌ حتَّى يُؤْمِنَ بأربعٍ: يشهَدُ أن لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، وأنِّي مُحمَّدٌ رسولُ اللَّهِ بَعثَني بالحقِّ، ويُؤمنُ بالموتِ، وبالبَعثِ بعدَ الموتِ، ويؤمِنُ بالقَدرِ، وزاد عبد الله خيرِه وشرِّه)** [٣١] .

في قوله تعالى: **﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴾** [٣٢]، ذكر في **﴿ قَدَّرَ ﴾** قراءتين، . قراءة بتشديد الدال وأخرى بتخفيفها ثم قال: (قال البغوي: وهما بمعنى واحد أي: أوقع تقديره في أجناس الأشياء وأنواعها وأشخاصها ومقاديرها وصفاتها وأفعالها، وآجالها وغير ذلك من أحوالها، فجعل البطش لليد والمشى للرجل، والسمع للأذن والبصر للعين ونحو ذلك)[٣٣].

ذكر الخطيب رحمه الله أنه لا يقع في هذا العالم من شيء إلا بقضاء الله وقدره ومشيئته . وهذا هو مذهب أهل السنة، فإنهم يقولون: إن الله خالق كل شيء وربه ومليكه، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو على كل شيء قدير) [٣٤] .

الخاتمة:

وفيها أهم النتائج والتوصيات.

نشأ الخطيب الشربيني رحمه الله في مصر، بلد العلم ومركز الثقافة الإسلامية، وخصوصا بعد سقوط الخلافة في بغداد، وتلقى تعليمه على أيدي علماء أفذاذ، وكان رحمه الله عالم بالفقه واللغة، وهى العلوم الأساسية التي يحتاج إليها المفسر، كذلك كان عابدا زاهدا محبا للخير، مما أعطاه القناعة في الإقدام على هذا العمل، فألف تفسيره الذي تجنب فيه التطويل الممل، والتقصير المخل .

ومن خلال دراسة منهج الخطيب الشربيني في تفسيره، توصلت ما يلى:

١. كثير من كتب التفسير تتميز بجانب يغلب عليها، فمنها الذي يعنى بالتفسير بالمأثور، ومنها ما يعنى بالتفسير بالرأي، ومنها ما يغلب عليه العناية والإهتمام بالأحكام الفقهية، ومنها ما يهتم باللغة نحوا واشتقاق وبلاغة، وغير ذلك من الجوانب التي تتعلق بكتاب الله تعالى، ويحتاج إليها أهل الاختصاص . وتفسير الخطيب الشربيني احتوى على اتجاهات متعددة، وقد رأينا ذلك من خلال الباب الثاني، الذي تبين لنا فيه اهتمامه بالتفسير بالمأثور وبالرأي، واللغة والأحكام الفقهية والقراءات وعلوم القران الأخرى.

الحواشي:

(١) سورة النساء، من الآية ٨٢

(٢) سورة محمد، الآية ٢٤

(٣) انظر: ترجمته في الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة للنجم الغزي، تحقيق جبرائيل حبور، دار الآفاق الجديدة بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٩م، ٧٩/٣، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بن العماد الحنبلي، دار الآفاق الجديدة ، بيروت، ٣٨٤/٨، الأعلام ٢٣٤/٦، معجم المؤلفين٢٦٩/٨، هدية العارفين ٢٣٤/٦، معجم المطبوعات العربية ١١٠٨/١.

(٤) المصدر نفسه ٧٩/٣ ، وانظر شذرات الذهب ٣٨٤/٨ .

(٥) شذرات الذهب ٢٣٦/٨.

(٦) انظر الكواكب السائرة ١١٩/٢، والشذرات ١٠/ ٤٥٤

(٧) انظر شذرات الذهب ٤٥٤/١٠، والكواكب ١١١/٣ .

(٨) شذرات الذهب ٣٤٨/٨ ، والكواكب ٣٣/٢ .

(٩) انظر الكواكب السائرة ٨٠/٣ .

(١٠) انظر الكواكب السائرة ٨٠/٣ .

(١١) هو معبد بن خالد الجهني القدري ، أول من أظهر القدر بالبصرة قتل سنة ٨٠ هـ ، انظر البداية والنهاية ٣٤/٩ .

(١٢) سورة الأعراف الآية ٢٩ .

(١٣) سورة التغابن الآية ٢ .

(١٤) السراج المنير ٤٧١/١ .

(١٥) سورة الأعراف الآية ٨٩ .

(١٦) السراج المنير ٤٩٤/٢ .

(١٧) سورة الفرقان الآية ٢ .

(١٨) قوله: (لايحدث شيئا لحكمة) إلخ ، يوهم أن الخطيب يقول بما تقول المعتزلة : أن الله لا يجوز أن يخلق شيئا لغير حكمة ، وهذا غير مقصود له رحمه الله .

(١٩) السراج المنير ٦٤٧/٢ .

(٢٠) سورة الأحزاب الآية ٣٨ .

(٢١) السراج المنير ٢٥٢/٣ .

(٢٢) سورة الصافات الآية ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٢٣) السراج المنير ٣٩٧/٣ .

(٢٤) سورة القمر الآية ٤٩ .

(٢٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٨٦/٢ ، وأبو داود ٢٢٢/٤ في كتاب السنة ، حسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير ١٥١/٤ .

(٢٦) سورة القمر الآية ٤٧ .

(٢٧) أخرجه مسلم ٢٠٤٦/٤ في كتاب القدر ، والترمذى ٤٥٩/٤ في كتاب القدر .

(٢٨) سورة يس الآية ٤٧ .

(٢٩) سورة القمر الآية ٤٩ .

(٣٠) أخرجه مسلم ٢٠٤٤/٤ في كتاب القدر .

(٣١) أخرجه البغوي في شرح السنة ١٢٢/١ ، وابن ماجه في المقدمة ٣٢/١ ، والترمذي في كتاب القدر ٤٥٢/٤ ، وإسناده صحيح .

(٣٢) سورة الأعلى الآية ٣ .

(٣٣) السراج المنير ٥٢٠/٤ .

(٣٤) انظر : معارج القبول ٣٢٦/٢ ، وشرح الواسطية ص ١٤٣، ومجموع الفتاوي الجزء ٨ كله عن القدر ، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة ٥٤٣/٣ وشرح العقيدة الطحاوية ص ٢١٧ وما بعدها .